الأمراض والأوبئة وآثارها على المجتمع المصري
(١٧٩٨ – ١٨١٣م)

ليلى السيد عبد العزيز
باحثة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة طنطا
جمهورية مصر العربية

بيانات الأطروحة
أطروحة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب – جامعة طنطا
٤٢٨ صفحة – مصر ٢٠١٦

إعداد: ليلى السيد عبد العزيز
إشراف : د. وجيه علي أبو حمزة
إشراف : د. إبراهيم علي عبد العال

كلمات مفتاحية:
تاريخ الطب، مجال الصحة العامة، الأمراض الاجتماعية، الطب الشعبي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.12816/0051266 DOI

مُقَدِّمَةٌ

هناك فجوة كبيرة أغفلها المؤرخون العرب عن تلك الفترة التاريخية المهمة (١٧٩٨- ١٨١٣م) فكانت الكتابات الخاصة بها عن الجانب الاجتماعي قليلة جدًا، وهى فترة مجيء الحملة الفرنسية على مصر وما أعقب خروج الحملة من فوضى وصراع على الحكم والسلطة وإهمال أمور الدولة، وما تبع ذلك من انتكاسة صحية استمرت حتى سنة ١٨١٣م إلى أن بدأ محمد على باشا الاهتمام بأمور الصحة؛ ويُعَدُ موضوع الأمراض والأوبئة من الموضوعات المهمة التي تلقى الضوءَ على المزيد من المعلومات عن الحياة الاجتماعية، وأيضًا على الوضع السياسي والاقتصادي الذى أثر على تفاقم وسوء الوضع الصحي للمجتمع المصري. ويرجع السبب في اختياري لموضوع الأمراض والأوبئة وآثارها على المجتمع المصري من عام (١٧٩٨- ١٨١٣م) البداية هي مجيء الحملة الفرنسية على مصر لأنها تعتبر نقطة بداية لانفتاح مصر على الثقافة الأوروبية والنهاية عام ١٨١٣م هو بداية الإصلاحات الطبية التي بدأها محمد على.

لقد ساءت الأحوال الصحية؛ بسبب انتشار الجهل وانتشار الأمراض والأوبئة؛ نتيجة إهمال المشروعات الصحية، وانتشار الخرافات بين الناس، وتأخرت الحياة العلمية وأصبح دور التعليم في مصر مقصورًا على الأزهر الشريف وبعض الكتاتيب. وشهدت مصر تفشي كثير من الأمراض التي عانت البلاد منها كثيرًا كالأمراض الجلدية، حيث كان الجدري أكثر شيوعًا وكثيرًا ما اجتاح قرى بأكملها وفتك بالكثير من سكانها، كما كان بلية مخفية لأطفال مصر في ذلك الوقت إذ كان يقضي على حياة معظمهم، فواجهته الحكومة بتطعيمهم ضده، كما تفشى بمصر في تلك الفترة أمراض العيون الكثير منهم، وأمراض البطن التي كان أخطرها الدوسنتاريا، هذا فضلاً عن أمراض أخرى كالأمراض العقلية والتناسلية التي كان لها هي الأخرى خطرها على سكان مصر في تلك الفترة.

وقد تميز القرن الثامن عشر بانتشار الأوبئة الفتاكة التي حصدت أرواح كثيرٍ من المصريين فنقص عددهم، وانخفض مستوى معيشتهم، وقلت موارد البلاد الإنتاجية، ومن الصعب الشفاء من الوباء ومن النادر أن يشفى المريض قبل أن يمر بكل فترات المرض في المواضع المختلفة، حيث ينشأ التقيح ويحتفظ الجلد بلون غريب يقرب عادةً من اللون الأرجوانى. وكانت الحالة الصحية في مصر في أواخر القرن الثامن عشر قبل مجيء الحملة الفرنسية بسنوات طويلة غاية في التدهور والسوء؛ فالأمراض والأوبئة تنتشر في البلاد وتفتك بالمصريين، والحكام مشغولون عن مقاومتها، والمستشفيات الموجودة قليلة لا تفي بالغرض، فلم يكن أمام المصريين سوى اللجوء إلى المشعوذين والدجالين. فقد كانت مهنة الطب مهنة خاملة راكدة تسلطت عليها الخرافات وشملها الجهل ورجع بها أدعياء الطب السنين العديدة إلى الوراء.

الدراسات السابقة

كانت الكتابات والمؤلفات التاريخية كثيرة جدًا في الفترة التي أعقبت فترة البحث، وأيضًا خلال الفترة العثمانية السابقة كل مَنْ يتعمق بها يجد الجديد، أما فترة الحملة وما أعقبها كان التركيز فيها على الجانب السياسي أولاً، ثم الجانب الاقتصادي ثانيًا، أما الوضع الاجتماعي فلم يحظ بالاهتمام الذي يستحقُه من قبل المؤرخين، لذلك كان لا بد لي من التطرق إلى دراسة الجانب الاجتماعي؛ فكانت دراسةُ الحياة الصحية لمصر خلال هذه الفترة (١٧٩٨ – ١٨١٣م) أمرًا غيرَ ميسرٍ في بداية العمل. فلما كانت الكتابات لهذه الفترة قليلة جدًا ويكاد يكون هناك فراغًا بحثيًا لتناول هذه الفترة من الجانب الاجتماعي، فقد حاولت أن أقوم بسد هذا الفراغ بقدر استطاعتي.

محتويات الأطروحة

ولقد كانت دراسة هذا المجال شيقة للغاية بالنسبة لي على الرغم من الصعوبات التي واجهتني في جمع المادة العلمية، فلم تكن الدراسة بالعمل الميسور لقلة المادة العلمية التاريخية وتشتتها مما أرهقني كثيرًا من أجل تقديم ولو جزء بسيط عن الحالة الصحية وآثار الأمراض والأوبئة على المجتمع المصري، ونتائج الانفتاح على الغرب وإدخال عادات وتقاليد جديدة إلى المجتمع المصري، وما تبع ذلك من بناء الدولة الحديثة؛ بالإضافة إلى أحوال المرأة وتحررها وتأثير كل ذلك على المجتمع المصري مع إبراز محاولة الاستفادة من الإيجابيات التي قدمها علماء الحملة الفرنسية من أجل مقاومة الأمراض والأوبئة والسلبيات التي نجمت عن تفشي العدوى. أما **المنهجية** فقد اتبعت الباحثة منهج البحث التاريخي في ضوء جمع المادة العلمية من وثائق ومصادر والكتابات المتعلقة بموضوع البحث، وتناولتها بالموضوعية التامة القائمة على النقد والتحليل.

والدراسة مقسمة إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة، ويتناول الفصل التمهيدي دراسة الأمراض والأوبئة في مصر العثمانية والآثار السلبية على المجتمع المصري كالأزمات التي أصابت المجتمع المصري مثل انخفاض فيضان النيل والعوامل التي ساعدت على انتشار الأمراض والأوبئة، ثم تناولت سيطرة المعتقدات الباطلة على عقولهم ولجوئهم إلى الخرافات؛ بالإضافة إلى الدور الإيجابي لبعض حكام مصر في مواجهة الأمور. ويتضمن الفصل الأول **(الأوضاع الصحية في مصر)** حيث تم إلقاء الضوء على أوضاع المجتمع المصري عند مجيء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١م) في القاهرة، الإسكندرية، الصالحية، دمياط، رشيد، طنطا، الصعيد. ثم الوضع في الفترة التي أعقبت رحيل الحملة (١٨٠١ – ١٨١٣م). ثم تناولت وضع المصريين بالنسبة لتعاطي المواد المخدرة، وأنهيت الفصل بأسباب حدوث وانتشار الأمراض والأوبئة.

ويستعرض الفصل الثاني **(الأمراض المنتشرة في مصر)**، فقد تعرضت في هذا الفصل للأمراض التي انتشرت في مصر خلال هذه الفترة والتي كان من أهمها الرمد، والجدري، والدوسنتاريا، والزهري، السيلان... وغير ذلك. تناولت المرض من حيث تعريفه وأعراضه وسبب حدوثه وانتشاره ونتائجه على مجتمع مصر في إطار تأريخي. ويناقش الفصل الثالث **(الأوبئة المتفشية في مصر)**، حيث تخصص هذا الفصل لوباء الطاعون الذي كان يُحدث فتكًا ذريعًا حين كانت تُصاب به مصر، ثم تناولت بشكل عام كيفية الوقاية للأمراض والأوبئة في مصر وبعض طرائق العلاج التي اتُبعت في مصر. ويستعرض الفصل الرابع **(الإجراءات الصحية والطبية)**، وقد تحدثت في هذا الفصل عن دور أطباء الحملة والجهود التي بذلوها أثناء تواجد الحملة الفرنسية من بناء مستشفيات، وتوزيع المنشورات الصحية لتوعية الأهالي، واستخدام أسلوب العقاب لتنفيذ الأوامر، ومنع المخالطة بالنساء المشهورات، وتحريم دفن الموتى داخل المساكن، واتخاذ إجراءات متعلقة بالنظافة، وفرض الحجر الصحي، ثم الإجراءات التي اتخذت بعد جلاء الحملة الفرنسية ومنها ما يخص الحجر الصحي عام ١٨١٣م.

ويدور الفصل الخامس عن **(ممارسات الاستشفاء وهو ما يعرف "الطب الشعبي")** من لجوء المصريين إلى طائفة الحكماء والحلاقين في العلاج كالعلاج بالفصد والحجامة والكى بالنار، وانتشار السحر والدجل والشعوذة كالاعتقاد في الجن واللجوء إلى الزار، والأخذ بالحسد، واللجوء إلى طائفة الغجر، والتداوي بالعقاقير العشبية، والتداوي بالأدوية المستخلصة من الأحجار والمعادن، والاستشفاء بالأضرحة، والتصديق بالخرافات والمعتقدات الباطلة، وكان كل ذلك نتيجة لتفشي الجهل وضعف حال التعليم. أما الفصل السادس والأخير **(آثار ونتائج الأمراض والأوبئة على المجتمع المصري)**، فقد تعرضت لنتائج معدلات الوفيات، وآثارها على جنود الحملة الفرنسية ومدى فتك الأمراض بهم، ثم تعرضت لآثارها على المصريين وانتشار المفاسد في المجتمع المصري وبخاصة مجتمع القاهرة من التبرج والزيجات المختلطة وانتشار البغايا وتنظيم دور الدعارة وبروز طائفة العوالم والغوازي، والآثار المترتبة على الزنا وآثار الأوبئة على المصريين وأثر ظاهرة دفن الموتى بالمساكن، وأثر المواد المخدرة، وأثر الجهل، وآثارها بعد خروج الحملة حتى عام ١٨١٣م.

نتائج الدراسة

وختمنا هذا العمل المتواضع بخلاصات عامة، إذ كان من المفيد أن نستخلص بعد نهاية كل فصل نتيجة أو أكثر ولما كان البحث مرتبطًا بدراسة موضوع الأمراض والأوبئة وآثارها على المجتمع المصري، فقد أسفرت هذه الدراسة على جملة من النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

- لقد انتشرت الأمراض المختلفة والأوبئة الفتّاكة، وكان الحُكام في جهلٍ تام بوسائل المقاومة ولم يكن بالبلاد طب ولا أطباء بل كان الناس يعيشون تحت رحمة المنجمين والحلاقين وأدعياء الطب، فكانت الأمراض تحدث بين الفلاحين بسبب القذارة (عدم الوعي الطبي) والرطوبة وسوء التغذية.[١]
- الجدري كان أول الأمراض، شديد الفتك بالأرواح ويُعَالج بإعطاء عسل وسكر يوميًا لمدة ستة أيام وفي اليوم السابع يُعطى سمكًا مملحًا، ولا يأخذ المريض مسهلاً قط، ويمنع من غسل عينيه حتى ولو امتلأت بالقيح وانطبقت جفونه، وأكد "فولني Volney" (*) أن مرضى الجدري يعالجون منه في مصر بطريقة سيئة للغاية.[٢]
- أما عن الرمد، فقد أكد "أوليفييه Olivier"على أن الهواء المحمل بالغبار والأتربة هو السبب في انتشار أمراض العيون وخاصة الرمد وكتب تبريرًا غريبًا وهو: أن المصريين اعتادوا النوم ليلاً في الهواء الطلق خارج منازلهم فيكونون عرضة لهبوب رياح الصحراء ويكون الهواء لطيفًا ليلاً وفي الصباح تشتد أشعة الشمس فهذا الانتقال الفجائي من حرارة الليل المنخفضة إلى حرارة الصباح الشديدة هي وراء انتشار أمراض العيون[٣]. أما "سافاري Savary"(*) فقد عزى سبب إصابة المصريين بأمراض العيون إلى أنهم يستنشقون رائحة الورود ليلاً فتسبب لهم الحساسية لعيونهم، كذلك أكد أن رياح الخماسين هي السبب في انتشار العمى ونفى "سافاري" أن تكون الحرارة أو الشمس الحارقة هي المسئولة عن أمراض العيون مؤكدًا أن البدو يعيشون في الصحراء وعيونهم سليمة ولذلك نلاحظ أن المماليك نادرًا ما يتعرضون لمرض العيون، كما أن الفلاحين في الدلتا أكثر تعرضًا لهذا المرض من البدو.
- عانى الرحالة الفرنسيون من الحمى بسبب ارتفاع حرارة الجو ولكن "فورمون" أكد أن هواء القاهرة نظيف وأن مياه النيل هي العلاج الوحيد للحمى ولا تحتاج لغلي أو تطهير، في حين وُجد رأي مناقض يذكر أن مياه النيل التي تشرب طيلة العام دون تنقية تسبب الحمى التي تهدم الجسم وذلك لأن مياه النيل تصاب بالعطب كل عام قرب نهاية شهر أبريل.
- وعن الأمراض التناسلية، فيعتقد أن ميكروبها البالغ النشاط ينتقل من جيل لجيل حيث ينتقل إلى دم الأطفال مع لبن الرضاعة لذلك فإن الأمراض التناسلية لا تشفى بشكل جذري.
- وكان أخطر الأوبئة على الإطلاق هو الطاعون؛ فقد ذكر "فولني Volney" أن الطاعون لا ينشأ داخل مصر بل يأتي إليها من الإسكندرية إثر وصول أحد المراكب المقلعة من أزمير وإستانبول ومنها إلى رشيد ثم ينتقل منها إلى القاهرة، فهو روح خبيثة تتسرب إلى جسم الإنسان وقد يحلو لها أن تسكنه حتى تقضي عليه أو تبرحه فيشفى.
- إن الإجراءات التي اتخذت من أجل الوقاية من الأمراض والأوبئة كانت كلها حميدة وآتت بفائدة على الطرفين الفرنسيين والمصريين ووضعت حد لمنع انتشار الأمراض والأوبئة، فإن بونابرت قد اصطحب معه فريقًا بارعًا من الأطباء على رأسه الطبيب ديجينت والجراح لارى، فقام هذا الفريق منذ أن وطأت أقدامهم أرض البلاد بجهود عظيمة وفائقة في مقاومة الطاعون والأمراض المتفشية في البلاد، وبذل المحاولات لتشخيص تلك الأوبئة والأمراض وعلاجها واهتمامهم بتحسين الحالة الصحية للجنود الفرنسيين وما صاحبه من إنشاء المستشفيات العسكرية والمحاجر، ولقد انعكست هذه الجهود وتلك الاهتمامات على المصريين الذين سمح لهم بالتردد على المستشفيات الفرنسية والتزود بالتعليمات والأوامر الصادرة عن قيادة الجيش لعدم تفشى الأمراض فيما بينهم وبالتالي الحفاظ على صحة الجنود.
- بالإضافة إلى اهتمام الفرنسيين بإنشاء المحاجر الصحية لمراقبة الوافدين عبر البحر إلى البلاد وأيضًا توزيع المنشورات الصحية على الأهالي أدت إلى نمو الوعى الصحي لدى المصريين، كما أن إجراءات النظافة استفاد منها المصريين إلى وقتنا هذا فحقًا قد ساهمت الجهود الفرنسية في تحسين أمر الصحة في مصر؛ إلا أنه لم يفلح الفرنسيون في استرعاء انتباه القاهريين أو إثارة إعجابهم بجهودهم العلمية، بل نجحوا في إزعاجهم وتحريك مخاوفهم وزيادة استخفافهم بهم، حيث كانت تلك الإجراءات التي لجأ إليها أطباء الحملة ورؤساؤها لمنع انتشار العدوى ومكافحة الأمراض جهودًا عظيمة من أجل المحافظة على الصحة العامة في مصر وكان يلازمهم التوفيق في بعض مساعيهم من فائدة استشارة الأطباء الفرنسيين، وقبول المعالجة على أيديهم، ولكن كانت الإجراءات التي اتخذت للحيطة من وباء الطاعون جعلت المصريين ينفروا منهم وكانت سببًا في سخطهم عليهم.
- أما بعد خروج الحملة عام ١٨٠١م عاشت مصر سنوات من الفوضى التي صاحبها إهمال واضح للصحة العامة وذهبت على أثرها جهود الأطباء الفرنسيين، وعاد الناس إلى الاعتماد مرة أخرى على الوصفات البلدية، كما عادوا إلى ممارسة دفن موتاهم وسط الأحياء وضاعت جهود الأطباء الفرنسيين، وظل الوضع كذلك إلى أن تولى محمد علي حكم مصر ١٨٠٥م بدأ في إنقاذ الأمر فاستدعى الأطباء الأجانب من الخارج.
- كان المصريون في ذلك الوقت لهم ممارسات يلجئون إليها بغرض الشفاء من الأمراض، من عمل التمائم والاكتفاء أحيانًا بزيارة أضرحة الأولياء عند المرض والالتجاء إلى الدجالين، والواقع أن بعض هذه الطرائق قد تجدى في العلاج إما عن طريق المصادفة، أو عن طريق العامل النفسي.

- لقد نتج عن انتشار الأمراض والأوبئة في مصر الكثير من الآثار ليس على الجانب الاجتماعي فقط مثلما يعتقد الكثيرون وإنما على جميع جوانب الحياة العامة، فنجد أن الظروف السياسية التي عانى منها المجتمع سواء في فترة الحملة أو الصراعات والفوضى بعد خروج الحملة، أو العقبات التي واجهت محمد على أثرت بالسلب على إهمال أمور الصحة، وكذلك الوضع الاقتصادي من نقص في الغذاء أو المحاصيل الزراعية لعدم وفاء النيل، فكثيرًا ما أصاب المجتمع قحط ومجاعة صاحبه تفشى الوباء، فكان أمرًا طبيعيًا حدوث حالات وفاة كثيرة جدًا.

خَاتِمَةٌ

في الحقيقة؛ إن المرض كان هو العدو الحقيقي الذي هدد جنود الحملة، وقد نجم عن الأمراض الاجتماعية في هذه الفترة كالزنا والرقص من تزايد حالات المصابين بالزهري والسيلان مما أتاح الفرصة إلى حدوث خلل في كيان المجتمع المصري تسببت فيه فئة خاصة منه وليس المجتمع بأكمله بأن انتشرت المفاسد من جراء ممارسة الزنا والراقصين والبغايا. ثم ألحقت الباحثة بالبحث عدد من الوثائق والملاحق التي استندت عليها خلال دراستها لموضوع الرسالة، وكذلك ألحقت بها بعض الصور عن حالة المجتمع في ذلك الوقت. ولقد استخدمت الباحثة الوثائق والوحدات الأرشيفية التي وفرت لها مادة علمية وفتحت مجال أمامها للتوسع في الموضوع ولعل أهمها محافظ الحملة، ومحافظ الأبحاث، ووثائق عابدين، وملخصات دفاتر المعية السنية تركى، ومحافظ الذوات، وسجلات محكمة دمياط الشرعية، ومجلس النظار والوزراء. واعتمدت الباحثة على عدد من الدوريات منها كورييه دى ليجيبت (Courrier de l'Egypt) ومجلة الروزنامة، ومجلة مصر الحديثة، ومجلة الأطباء، والطبية المصرية، ويعسوب الطب، ومصر المحروسة، هذا بالإضافة إلى الرسائل العلمية غير المنشورة خلال فترة البحث، والمصادر التي جعلتني أتفنن في سرد الموضوع وأطلعتني على حقائق كثيرة عن الحالة الصحية للمجتمع المصري في هذه الفترة من تاريخ مصر مثل علماء الحملة الفرنسية: موسوعة وصف مصر (Description de l'Egypt)، والجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، وكتابات فولني وكلوت بك: لمحة عامة إلى مصر.

الهوامش

(١) حلمي محروس إسماعيل: **حالة مصر الاجتماعية في القرن الثامن عشر**، رسالة ماجستير، آداب إسكندرية، ١٩٦٧م، ص١٧٧، ١٨٤.

(*) أحد الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر وكتبوا عنها وألف كتابًا، وقد رجع علماء الحملة إلى هذا الكتاب.

(٢) س. ف. فولنى: **ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام**، ترجمة: إدوارد البستاني، ج١، ط٢، منشورات دار المكشوف، بيروت، لبنان، ١٩٤٩م، ص١٥٧؛ إلهام ذهني: **مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص٣٣٥.

(٣) فولني: مصدر سابق، ج١، ص ١٥٥؛ نهى سعيد: **الطب في مصر في العصر العثماني**، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة، ٢٠٠٥، ص٧٥.

(*) من أهم الرحالة الذين زاروا مصر، جاء إلى مصر عام ١٧٧٣ م ومكث بها ثلاث سنوات ووضع كتابًا عن مصر في ٣ أجزاء استعانت به الحملة الفرنسية. انظر؛ ياسر قطامش: **مصر في عيون فرنسية**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٤، ص٢١.